الدارسون والقصص الجاهلى

الشواهد كلها تشير اشـــارة واضحة الى ان الأدب العربى عرف القصة فى كل عصوره ، بل وعرف منها ألوانا وفنونا . الا ان الشواهد كلها أيضـــا تقول ان هذه الصـــور قد اخرجتها أيدى المؤرخين القدماء ، والدارسين الراصدين للانتاج الفنى من اطار الأدب الا ماسف منها وأصبح بلا غنـــاء فى تطور أو اشـــباع ، وما انحرف منها عن الهدف الأصلى لكتابة القصة الى أهـــداف أخرى تلائم مفهوم هؤلاء المؤرخين والراصدين للأدب من ارتباط بين سلطات الحكم وبين الانتاج الفنى ؛ ومن علاقة لابد أن تتحقق بين ما يثبتون من انتاج وبين أشكال الفن التى تخدم سلطة الحكم القائمة ، بل وبين علاقة أصحاب الانتـــاج بأصحاب السلطة فى عصرهم ..

واحسب أن هذا الادعاء سيثير الكثير من السخط والحنق عند كثير من الناس ، ولكنى احسب أيضا أن مراجعـــة صغيرة لأى كتاب من كتب الطبقات أو كتب التاريخ والأدب ستثبت صحـــة هذا الزعم وقربه من الصدق والواقع .. وأحسب أيضا أنه من اليسير ان نفهم أن أصحاب السلطة هنـــا ، يكونون أصحـــاب السلطة الدينية مرة ، وأصحاب السلطة فى الحفاظ على التراث العربى مرات .. فمن المعروف أن الأدب العربى لم يدرس فى

العصور الاسلامية الأولى لنفسه ، وانما هو قد درس من حيث هو وسيلة الى تفسير القرآن والى استنباط الأحكام منه ومن الحديث ..

والقصص ليس دينا بل ربما تعارض مع المفاهيم الدينية ، وليس سياسة بل وربما تعارض مع السمات السياسية لعصر من العصور ، فلا عجب أن انصرف هؤلاء المؤرخون عن كل ما لا يخدم أهدافهم الاولى التى وضعوها نصب أعينهم حين شرعوا يؤرخون حياة العرب وفنهم بما يخدم ما حددوا لأنفسهم من أغراض ..

وقد يكون هذا قد أدى الى سقوط عديد من القصص التى عرفت فى العصر الجاهلى ، والتى تناقلتها الأيام تراثا فنيا خالصا معبرا عن روح أبناء الجزيرة العربية قبل الاسلام .. ولكن هذا أيضا قد أبقى الكثير من ألوان الفن القصصى التى كانت تخدم أهداف الدارسين .. فالحياة العربية قبل الاسلام كانت مليئة بالخلافات والعصبيات التىتضرب بأصولها فى بطن التاريخ ، والتى تستند فى كثير من الأحيان الى معتقدات طال العهد بمصدرها الأول وأساسها الحقيقى ، وقد وجد الاسلام نفسه فى مركز هذا الصراع فكان لابد له أن يعتمد اعتماد كبيرا على معرفة كاملة بكل التيارات التى تضطرب بها الجزيرة العربية وتموج ، وكان لابد له أيضا من أن يمس أصول هذه الخلافات وجذورها ، ومن هنا كانت الاشارات الكثيرة التى جاءت فى القرآن الى أمم سالفة وأحداث

أخذت مجراها فى الماضى البعيد . فالذى لاشك فيه أن العرب كانوا يعرفون من أمر هذه الأمم ، ومن أمر هذه الأحداث ما يجعلهم يتقبلون ما ذكره القرآن عنها فى يسر وسهولة .. ونحن نزعم ان هـذه المعرفه كانت على شـكل أعمال قصصية ذات منهج ما وأسلوب ما دونت فيها هـذه الأحداث وحفظت .. وعرفها العرب وتداولوها ..

وحين جاء المفسرون اضطروا الى البحث عن تفسير كامل لهذه الاشارات التى جاءت فى القرآن ، وهكذا اضطروا الى اثبات الكثير مما جاء فى القصص التى كانت معروفة فى العصر الجاهلى..

والعلمـاء مجمعون على أن العرب فى الجاهليـة كانت لهم قصص كثيرة ومتعددة ؛ فقد كانوا مشغوفين بالتاريخ والحكايات التى تدور حول أجدادهم وملوكهم وفرسانهم وشعرائهم ؛ وكتاب الأغانى لأبى الفرج الاصفهانى يكاد يكون ذخيرة كاملة من القصص الذى تناقله الناس عن شعرائهم ومجالسهم وملوكهم .. بل ان كتاب الأغانى فى حد ذاته يحتاج الى دراسة واعية بأسلوبه وطريقة كتابته ، ولست أعنى بأسلوبه هنا المميزات اللغوية وتركيب الجمل فهذه الدراسات والحمد لله متوفرة عند الدارسين المعاصرين ونحن منها فى تخمـة . ! وانما أعنى بناءه القصصى فيمـا يحكى عن الشعراء ، فان أبا الفرج يرسم فى كل فصل من فصـول كتابه صورة كاملة لمجلس من المجالس ، ويكاد يحدد لك فى براعة ودقة كل ما فى المشهد من جزئيات ثم هو ينقلك خلال قصيدة تغنى بنغم

يحدده لك ، ينقلك خلال الشعر الذى يذكره والنغم الذى يحدده ، لتعبر معه التاريخ الى صاحب القصيدة تشهد حياته كلها يقصها عليك فى دقة لا تغفل التفاصيل ؛ ولكنها دقة موجهة — ان صح التعبير — فهو يريد من كل ما يذكر لك أن يرسم جانبا معينا فى حياة شاعره ليرتسم فى ذهنك فى صورة واضحة انسانا له خصائص وسمات بعينها ..

أحسب أن هذا البحث حول الأغانى سابق لأوانه ؛ وكل الذى يعنينا هنا هو أن الكتاب ملىء بالقصص حول الشعراء الجاهليين وغير الجاهليين بما يؤكد أنهم كانوا يعرفون هذا اللون من الانتاج ويتناقلونه ، وليس كتاب الأغانى هو المرجع الوحيد فى هذا بل ان المكتبة العربية غنية بأمثال الأمالى وصبح الأعشى والعقد الفريد والشعر والشعراء وكتب التراجم والطبقات بما لا يدع مجالا للشك فى أن التأليف العربى قد تناول الحياة الجاهلية فى كل مظاهرها .. الا أن الدارسين المحدثين رفضوا بكل بساطة ان يعتبروا ما فى هذه الكتب من القصص فنا نثريا مميزا له أصوله الجاهلية ، واعتمدوا فى هذا على أن كل هذه الكتب انما دونت فى العصر العباسى الذى يبعد بعدا زمنيا كبيرا الى حد ما عن العصر الجاهلى ..

ويقول الدكتور شوقى ضيف فى كتابه الفن ومذاهبه فى النثر العربى :

« وما كنا لنتخذ صياغة العباسيين مثالا لصياغة الجاهليين. ومن اجل ذلك كنا لانستطيع أن نعتد — من الوجهة الأدبية — بما يروى فى هذا العصر من عناصر القصص والتاريخ ، لأن الرواة حرفوا لفظه ؛ بل لقد حرفوا معناه على نحو ما حرفوا قصة الزباء ؛ ولو أن العرب كتبوا تاريخهم وقصصهم فى العصر الجاهلى لاعتددنا بهذا الجانب من نثرهم . ولكنهم لم يكتبوا شيئا » ..

والسؤال الذى أحسبك ستسأله معى للدكتور شوقى ضيف هو : والشعر العربى أدون فى العصر الجاهلى ؟

ومعروف أن الشعر العربى لم يدون فى العصر الجاهلى ، بل ومعروف أن حركة التدوين تمت متأخرة واعتمدت اعتمادا كبيرا على الحفظ والرواية ، بل ومعروف أن هذا هو أحد الأسباب التى اعتمد عليها الدكتور طه حسين فى نظريته عن انتحال الشعر الجاهلى .. ومع هذا فقد درس الدكتور شوقى ضيف بل والدكتور طه حسين نفسه الشعر الجاهلى دراسة تتناول الأسلوب واللغة والتراكيب البلاغية قبل أن تتناول المضمون ، والدكتور شوقى هو بعد صاحب مذهب الصنعة والتصنع والتصنيع فى كتابه الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ..

فالدارسون المحدثون اذن لم يعتدوا من الوجهة الأدبية بما جاءهم من قصص جاهلى ولم يعتبروه فنا نثريا جاهليا ، وذكروا حجتهم فى ذلك وهى تأخر التدوين .. ولكنى أحسب أن هناك

obeikandl.com

أسبابا أخرى صرفتهم عن دراســة القصص الجاهلى صرفا ؛ ليس منها على أى حال بعد عصر التدوين وان احتجوا به .. فهم كما نعلم قد تقبلوا الشعر الجاهلى دون كبير عناء ؛ بل هم قد تقبلوا من النثر الجاهلى الخطب وسجع الكهان والأمثــال ، وعنوا بدراسة هذه الألوان من الانتاج النثرى وراحو يخرجون منها بأحكام على نثر الجاهلية دون أن يضطربوا الا قليلا أمام الشك فى صحتها .. وانما أحسب أن المسألة غير هذا ، أحسب انهم تخيلوا نقلا عن الدارسين القدماء صورة بعينها للعصر الجاهلى والأدب الجاهلى ؛ تخيلوا الحياة الجاهلية بداوة وفقرا ، ورحلة لاتنتهى فى قلب الجزيرة والى أطرافها ، وعناء وخشونة ؛ وجهلا بكل شىء مما يعرفه العالم فى قديمــه وحديثه معا .. وتخيلوا الأدب الجاهلى طنطنة الفاظ ، وعبث فارغين يبدون مهاراتهم من صنوف الرياضــة الذهنية التى تجعل جل اهتمامهم منصبا على وضع اللفظ الى جوار أخيــه فى اتساق نغمى معين .. وراحوا بعد هذا الذى تصوروه لحياة الجاهلية وأدبها يبحثون عما يرضى هذا التصور ، وأنت فى الشعر الجاهلى الذى جمعوه تكاد تسمع نفس اللحن يعزفه أكثر من عازف ، كلهم لا يعرفون الا الرحلة والناقة وبعر الآرام ، وكلهم يحيون على حب جنسى أسقم ما فيه العاطفة ، وعلى حقد كريه يولد الهجاء للغير ، وعلى أنانية مفرطة تجعل الفن المفضل فيما رووه من شعر الجاهلية هو الفخر ، ثم على ذلة وصــغار يرسمان الشــاعر دائما مادا يده فى ســبيل العطاء ..

وليس من بحثى فى شىء الشك فى أمر هذا الشعر ، فقد يكون صحيحا أو لايكون .. ولكن الذى يعنينى هنا أنه لا يكاد يصور من حياة أهل الجاهلية الا هذه الصورة البغيضة المنفرة التى أحسب أنها لا تكاد تمثل — ان مثلت شيئا — الا ما يتخيله هؤلاء الدارسون من قدماء ومحدثين عن شكل الحياة الجاهلية وحقيقتها ..

وغير هذا ما تنقله القصص التى عرفت عن الجاهليين من صور ، ففيها قصص بطولة رائعة ، وحكايات حب انسانية ، وقصص وفاء وغدر ، وصراع فى سبيل الخير وفى سبيل الشر جميعا ، وفيها علاقات لا تنتهى بكل أجناس الأرض الذين عاشوا حول الجزيرة بطباعهم وعاداتهم ، وبثقافاتهم ومعرفتهم ..

والقصص التى جاءتنا عن الجاهلية اذن ترسم صورة تكاد تكون مخالفة تماما لتلك التى أراد الدارسون أن يرسموا ، وتعطى خصبا ونماء فى حياة الجاهليين احسب أن الدارسين اكتفوا بتكذيبه ونسبته الى الرواة والناحلين حتى لا يشوه الصورة التى اقتنعوا بها اقتناعا ..

والقصص ايضا ليست فيها هذه الرياضة الذهنيه التى أولع بها أصحاب الدراسات ، فلن تجد فيها هذا العبث اللفظى الذى يسمى بالصناعة .. بينما الخطب والأمثال وسجع الكهان — تلك الصور التى ارتضوها ، واقتنعوا بها — لا تكاد تحمل من شىء

الا هــذا العبث اللفظى الذى يتيح لهم أن يصــولوا بحثا عن الصناعة ما شاءوا ..

ومعروف أن من أسباب العناية بتدوين الشعر الجاهلى الرغبة فى معرفــة معانى بعض الفاظ القرآن ، فاحتجوا على معناهــا وصحتها معا بورودها فى شعر الجاهليين ، ثم بداوا يروون لنا هذا الشعر الجاهلى بل ورووا لنا صــور النثر التى نقلوها من خطابة وسجع لنفس اسبب والأهداف . وأنا أيضا لا أريد البحث حول صحة هذا الشعر وتلك الصــور النثرية ، أوضعت وضعا لتفسر الفاظ القرآن أم هى صحيحة ، ولكن الذى أريده هو أن اثبت ان هدفا لغويا معينا ــ بصرف النظر عن الهدف الدينى ــ كان هو الحافز على جمع هذا الذى جمعوه من شعر الجاهليين.. وما دام الأصل فى الجمع لغويا ولفظيا فلابد أن يكون الأصــل فى الدراسة كذلك ..

فالدارسون القدماء ، والدارسون المحدثون كذلك لم يجدوا فى القصص الجاهلى صــورة ما تخيلوا عن حيــــاة الجاهليين فاسقطوه .. وهم كذلك لم يجدوا فيه ما يفيدهم فى بحثهم عن الصنعة وغريب الألفاظ فاكتفوا بذكر الحجة التى تقول انه حرفه فى لفظه بل وفى معناه ، ثم أسقطوه ..

والدارسون قد وضــعوا فى قلوبهم واذهانهم أن العرب فى الجاهلية كانوا مشغوفين بالبيان وبالبلاغة ، ودليلهم على هذا هو القرآن الكريم نفسه ، فالقرآن كمعجزة بيانية لابد أنه كان يخاطب

أناسا صناعتهم وهوايتهم البيان والبلاغة ، ولتثبيت هذا المعنى لم يقبلوا من صور الأدب الجاهلى الا ما حفل بالصنعة البلاغية ، وما يقف شاهدا على براعة العرب الجاهليين البيانية .. بل ومعروف كذلك أن الدراسة الأدبية بدأت عند المسلمين على أساس محاولة تفسير اعجاز القرآن البلاغى ..

والواقع اننا لا نستطيع أن نسلم أن شعبا بأسره قد وقف حياته على اللهو بالألفاظ والتجويد فى صور صياغتها ، وانما نحسب أن هذا كان عمل طبقة معينة من الناس ، كانوا هم المتصدين للحياة الفكرية والقولية عند العرب ، ونحسب أن بلاغة القرآن كانت تقصد الى افحام هؤلاء والزامهم الحجة .. فهى تقارعهم بنفس سلاحهم وهى تنتصر عليهم بما لايدع أمامهم مجالا للشك فى صحة الوحى ، وتعذر صدور القرآن عن بشر مثلهم .. وهذا لايعنى بالتالى أن الشعب العربى — كما قلنا — كان كله صاحب بيان وبلاغه ، والا لخلا القرآن الا من الصور البلاغية والبيانية .. ولكن القرآن مضمون ومحتوى .. ومن هذا المضمون والمحتوى استمد أثره على باقى العرب الذين لا يضربون فى البلاغة بسهم ، واستمد أثره كذلك على غير العرب ممن لا يعرفون العربية وما فيها من صور بيانية ..

ولهذا فقد اقتصر بحث الباحثين على ما يثبت ايمانهم ببلاغة العرب وفصاحتهم ، حتى ليقول الدكتور شوقى ضيف فى كتابه الفن ومذاهبه فى النثر العربى :

« وفى جميع آثارهم من شعر ونثر نجد آثار هـذه الرغبة الملحة فى جمال المنطق وحسن التعبير . وما ينساق فى ذلك من خلابة السنة وطرافة بيان » ..

ومن قبله قال الجاحظ عن الجاهليين فى كتابه البيان والتبيين انهم كانوا « يحبون البيان والطلاقة والتحبير والرشاقة » ..

بهذه الروح اذن فهم الدارسون الأدب الجاهلى على أنه أدب صنعة ، ومرجع لغة ، ودليل بلاغة وصناعة ، ولهذا فقد اغفلوا ما لا ينفعهم فى هذا كله ، وأعنى القصص ..

الا أن هذا كله لا ينفى ان العرب فى العصر الجاهلى كانوا يعرفون القصص ، وان القصص كانت بابا كبيرا من أبواب أدبهم ، وان فيها دلالة كبيرة على عقليتهم وحياتهم .. وهم قد عرفوا الوانا متعددة من هذا الفن . عرفوا قصص الأنبياء وقصص الشعوب ، وقصص الأمكنة وقصص الملوك والأبطال ..

ومن أشهر قصصهم أيام العرب التى تدور حول الوقائع الحربية التى وقعت بين القبائل كيوم داحس والغبراء ، ويوم الفجار ، ويوم الكلاب ، أو تلك التى دارت رحاها بينهم وبين ما حولهم من شعوب كيوم ذى قار الذى انتصر فيه العرب على الفرس ..

كما كان للعرب أحاديث هوى تتناقل وتروى كقصة المنخل اليشكرى والمتجردة زوجة النعمان وما كان بينهما من علاقة مما ملأ الكثير من صفحات الأغانى ..

وعرف العرب قصصا تتناول بالتفسير المطعم بالبقايا الاسطورية الحياة والخلق ، فحكوا الحكايات عن نشأة العالم وعن آدم ونسله وعن نشأة اللغات وتعددها ، وعن التاريخ العربى كما تخيلوه حتى الاسلام مما نجده فى كثير من الكتب مثل التيجان لوهب بن منبه الذى يعتبر المرجع للكثير من الروايات العربية التى تلت عصره ..

والاسطورة عند العرب مثل الاسطورة عند سائر شعوب الأرض تنشأ مع نشأة التفكير عند الانسان ، ومع نشأة قدرته على الابانة والتعبير فيحاول عن طريقها أن يفسر ما يعجزه فهمه من ظواهر الكون حوله ، كما يحاول عن طريقها ان يعلل تعليلا خياليا ما يعجزه فهمه أو ادراك سره ليصبح قادرا على التلائم مع الظواهر الكونية التى لايدرك سرها ولا يفهم أسبابها ومكوناتها .. وطبيعى أن يعرف العرب الاساطير بكل أنواعها وان يتداولوها ويتناقلوها كجزء من تراثهم العربى الذى يصاحب عباداتهم الدينية المليئة بالرمز المثقل بالخيال الجامح البدائى . ومن هنا فان الكثير من قصصهم أو ما نقلته كتب الاخبار مما تبقى من هذه القصص مزدحم بآثار هذه الاساطير ملىء باشارات اليها والى رموزها والى ما كانت تقوم به فى مراحل التفكير العربى الأول من دور هام كتعبير فنى وكتفسير وجدانى تقدم به الانسان العربى ليساعده على اعادة التوازن بينه وبين الكون وظواهره واسراره ..

واخذ العرب القصص أيضا عن ما جاورهم من أمم اما نقلا

كاملا يذكرون فيه أصل القصة ، واما فيما يشبه ما نسميه اليوم بالاقتباس ، اذ يحورون فى القصة لتلائم ذوقهم وبيئتهم وحيانهم ..

وكذلك أخذوا من أساطير الشعوب التى خالطوها وعرفوا ثقافاتها . وامتزجت هذه الاساطير باساطيرهم فى تفاعل حيوى وتلاحم عضوى ، اتاح لها ان تذوب فى المفاهيم العربية وان تلتحم مع الاساطير العربية . ليكون الناتج قصصا يمثل لا المفاهيم العربية وحدها ، ولكن مفاهيم الانسانية وتراثها فى مرحلة من مراحل تطورها فى هذه المنطقة التى اتاحت لها ظروف التجارة والرحلة ان تتعايش وتتعارف وتثرى وجودها بالأخذ والعطاء ..

وقد وصل الكثير من هذا القصص الى أيدى الدارسين المحدثين ولكنهم انصرفوا عنه مزورين وكأنما عن عمد ، ويكفى أن أسوق هنا ما قرره الأستاذ أحمد أمين فى كتابه فجر الاسلام فى حديثه عن أيام العرب اذ يقول :

« ترى هذه الأيام وأخبارها مجموعة فى العقد الفريد ، وأمثال الميدانى ، وقد زاد القصاص فى بعضها وشوهوا بعض حقائقها ؛ كالذى تراه فى أخبارهم التى حكوها فى موت الزباء ، اذا قارنت بين ما قصوه وما ذكره ثقات المؤرخين عن زنوبيا .. فخبر الزباء المروى فى الكتب العربية عن هشام بن محمد الكلبى ، رواية خيالية موضوعة لا تتفق والتاريخ ، ولسنا ندرى هل أفسدها العرب فى جاهليتهم ، أو أفسدها رواة الأدب فى الاسلام » .

هذا الذى أسوقه هنا من كلام الاستاذ احمد أمين يوضح

الروح التى نظر بها الدارسون المحدثون الى هذه الآثار .. ويتشابه مع الاستاذ أحمد امين فى النظرة الى هذه القصه الدكتور شوقى ضيف الذى يقول عنها انها « لا تتفق فى شىء وحقائق التاريخ الرومانى الصحيحة التى كتبت عن زنوبيا » .

ولم يهتم الاستاذان بهذه القصة الا من ناحية صدقها التاريخى رغم ما يمكن أن تعطى هذه القصة من دلالة واضحة على وجود التأليف القصصى الذى يستمد مادته من التاريخ ، والواقع أنه ليس مطلوبا من كاتبى القصة مراعاة التاريخ والنقل الحرفى .. وربما لو قامت دراسة على احترام نص ابن محمد الكلبى وغيره ، واعتبار أعمالهم لونا من الانتاج الفنى القصصى ، ومحاولة المقارنة بين ما قصوه وبين ما تحكيه الوثائق التاريخية لاستنباط عملهم الفنى وأسلوبهم القصصى ، والزوايا التى وقفوا عندها ، لأمكن أن تكون هذه الدراسة أساسا لتكوين فكرة عامة عن الفن القصصى فى العصر الجاهلى .

أما النظرة الى هذه الأعمال وغيرها ، بل والى غالبية ما جاءنا من قصص جاهلى على اعتبار أنه افساد من أصحابه لحقائق التاريخ فهذا معناه اخراج كل هذه الأعمال من الأدب ، بل ومعناه اسقاط الانتاج القصصى العربى بكل ما فيه من قيم ودلالات .

ودارس الأدب ليس من مهمته فى شىء بحث صدق القصة التاريخى ، بقدر ما يدخل فى مهمته بحث أداتها الفنية وشكلها التعبيرى وقالبها الروائى ..

والأصل فى هذا كله يعود الى النظر الى الكتب التى حملت الينا هذه القصص كالأغانى والعقد الفريد والأمالى وغيرها على اعتبار أنها كتب تاريخ تروى الحقائق المجردة ، ويعتمد عليها فى هذه الناحيـــة وحدها ، رغم أنها فى حقيقة أمرها لا تخرج عن اعمال تجميعية لبعض القصص المنقول عن العرب ، فهى الى الفن اقرب منها الى التاريخ والعلم ..

بل لقد ذهب كثيرون من الدارسين الى ان كل هذه الروايات كاذبه ولم تنقل عن الجاهليين لأنهم لم يكونوا يعرفون الكتابة .. والواقع أن هذه النتيجة مبنية على مقدمة خاطئه فان النصوص الكثيرة التى وصلت الينا تدل على أنهم كانوا يعرفون الكتابة ، وانهم كانوا أيضا يستعملونها فى تدوين الآثار الأدبية . وليس معنى عدم وصول النصـــوص المكتوبة الينا انهم يجهلون الكتابة ولا يعرفونها ، وانما قد يكون معناه أن كتبهم ضاعت فى عصور متأخرة ، أو أهملت وأهمل شأنها ..

فمن المعروف أن المعلقـــات السبع كانت تدون وتعلق على استار الكعبة ، كما يروى أبو الفرج فى كتابه الأغانى أنه كان فى الحيرة (كتاب) يتعلم فيه الصبية الكتابة .. كما يروى الطبرى عن هشام بن محمد الكلبى أنه رأى فى بيع الحيرة بعض مدونات استخرج منها أخبار العرب ..

وفى صفحة ٢٠٨ من الجزء الأول من السيرة النبوية يقول ابن اسحق فى حديثه عن بناء قريش للكعبة : « وحدثت أن قريشا

وجدوا فى الركن كتابا بالسريانية ، فلم يدروا ما هو حتى قرأها لهم رجل من يهود فاذا هو : أنا الله ذو بكة ، خلقتها يوم خلقت السموات والأرض ، وصورت الشمس والقمر ، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء ، لا تزول حتى تزول أخشباها ، مبارك لأهلها فى الماء واللبن » ..

وقال ابن اسحق : « وحدثت أنهم وجدوا فى المقام كتابا فيه : « مكة بيت الله الحرام ، يأتيها رزقها من ثلاثة سبل ، لا يحلها أول من أهلها » ..

وقال ابن اسحق : « وزعم ليث بن أبى سليم أنهم وجدوا حجرا فى الكعبة قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة ، ان كان ما ذكر حقا ، مكتوبا فيه : « من يزرع خيرا يحصد غبطة ، ومن يزرع شرا يحصد ندامة ، تعملون السيئات ، وتجزون الحسنات ! أجل كما لا يجتنى من الشوك العنب » ..

وقد جاء الاسلام وفى مكة سبعة عشر كاتبا وفى المدينة أحد عشر .. ويقول الجاحظ فى كتابه الحيوان : ان العرب كانوا يكتبون بعض عهودهم السياسية وكانوا يسمون تلك العهود المكتوبة (المهارق) .. وقد ورد فى كثير من نصوص الشعر الجاهلى ما يفيد معرفة العرب للكتابة والتدوين .. وقد ذكر الميدانى فى مقدمة كتابه (مجمع الأمثال) انه رجع فى تأليفه الى ما يربو على خمسين كتابا .. بل ان وهب بن منبه يروى فى صدر كتابه التيجان فى ملوك حمير انه قرأ « ثلاثة وتسعين كتابا

obeikandi.com

مما أنزل الله على الأنبياء فوجدت فيها أن الكتب التى أنزل الله على جميع النبيين مائة كتاب وثلاثة وستون كتابا » ..

فالكتابة والتدوين اذن لم يكونا مجهولين عند العرب فى العصر الجاهلى ، وليس صحيحا أن الذين دونوا أخبـــار الجاهليين فى العصر العباسى قد اعتمدوا على ما حفظه الرواة وما تناقلوه ، اذ ليس معقولا على الاطلاق وقد جاء الاسلام يجب كل ما قبله أن يظل الرواة على ترديدهم لتراثات العصر الجاهلى فى حفظ واتقان ، وانما المعقول أن أصحاب كتب تاريخ الأدب التى دونت فى العصر العباسى استعانوا بهذه الكتب اما مباشرة كالميـــدانى مثلا ، واما عن طريق الرواة الذين احتفظوا عندهم بالمراجع للأدب الجاهلى يرجعون اليهـــا ويروون منها كهشام بن محمد الكلبى مثلا ..

وابن النديم صاحب الفهرست يروى أن محمد بن عبدوس الجهشيارى صاحب كتاب الوزراء قد ابتدأ بتأليف كتاب اسمه « ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم » فأحضر المسامرين وأخذ عنهم ما يحفظون كما اختار من الكتب المصنفة فى الأسمار والخرافات ما يشاء ..

فالكتب اذن كانت موجودة ومعروفة وليس من داع فى أن نكذب كل من يذكر أن العرب فى الجاهلية كانوا يعرفون الكتابة وانهم دونوا آثارهم كتابة وانها نقلت الينا عن هذا الطريق الى جوار طريق الرواية والحفظ .. ليس من داع لهذا لأنه التفسير

الصحيح لما نقل الينا من تراث قصصى كبير . فقد يكون من المعقول أن ينقل الراوى قصيدة شعر ، أما أحداث تاريخ وحكاية حياة فهذه تحتاج الى تدوين فى نقلها ..

ودليل أخير نسوقه وهو أن جزءا من معجزة القرآن البلاغيه يعود الى نزوله على نبى امى لا يعرف القراءة والكتابة ، فكأن صنعة البلاغة يعرفها القوم القارئون ، وكأن الكتابة كانت شائعة وسط أصحاب البيان العرب ، وكما أن محمدا كان أميا فضرورى اذن ان يكون هناك من يقرأون ويكتبون ، وضرورى اذن أن تكون القراءة والكتابة شائعة بحيث يلفت الأنظار أن يحمل أمى مثل هذه الرسالة التى تعتمد على البلاغة والبيان وتأتى بالمعجز من القول ..

وقد دعى الدارسين الى الشك فى وجود الكتاب ، انه لم يذكر إسم كتاب جاهلى لمؤلف بعينه ، ولكن أحسب أن وجود الكتاب شىء ووجود التأليف المنظم شىء آخر ، ومن يدرى لعلهم أيضا عرفوا التأليف والتصنيف ، وما دمنا نخبط فى بيداء هديها الوحيد هو الاستنتاج فليس لنا أن نقطع بشىء ، ولكن علينا فقط أن نوائم بين مختلف الفروض وبين ما هو أقرب الى طبائع الأشياء ..

الأقرب الى طبائع الأشياء أن العصر العباسى لم يدون كل هذا التراث الجاهلى من الذاكرة فقط ، ولكنه لابد قد اعتمد على اصول مكتوبة ، وما دام الدليل تحت أيدينا على معرفة العرب فى

جاهليتهم بالكتابة .. فليس ما يمنع من أن يكونوا دونوا قصصهم كما دونوا معلقاتهم فى صحف وصلت عن طريق التوارث الى الرواة الذين نقلوها الى العباسيين فأخذوا منها ، وهذا لايمنع بحال انهم أضافوا أو زادوا ، ولكنه يؤكد أن رفض كل التراث القصصى الجاهلى لمجرد أنه دون فى مصنفات متأخرة زمنيا خطأ يحتاج الى مراجعة .. ويؤكد أيضا أن الاعتماد فقط على الخطب وسجع الكهان والصور المليئة بالأشكال البيانية وحدها : تعسف يفسد صورة الأدب الجاهلى كله .. وليس ما يمنع ما دمنا قد ارتضينا بعضا من انتاج عصر أن نرتضى غيره ، وخاصة والمصنف الذى ينقلها الينا واحد .. اما ان نقبل بعضه لأنه يلائم الصورة التى رسمناها فى أذهاننا للأدب الجاهلى ، ونرفض بعضه لأنه يرسم صورة أخرى اكثر اشراقا وحيوية ، واقل صنعة وتكلفا فهذا ما لا نستطيع أن نفهمه على الاطلاق ..

والحياة الجاهلية بعد مليئة بالشواهد على وجود القصة واهميتها فى حياتهم وأدبهم .. واحسب اننا سنحاول أن نضع أيدينا على بعض الشواهد الأخرى التى لم نوردها حتى الآن ، وان كانت أكثر دلالة وأصدق ابانة فيما يلى من فصول ..